نعمة القرآن

كتبه
ياسر برهامي
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

دار الخلفاء الراشدين
الأسكندرية

دار الفتح الإسلامي
بخط كامل



رقم الإيداع :

دار الخلفاء الراشدين
ج. م. ع - الإسكندرية - حي الرمل
ش منشية الزهراء - أبو سليمان
٠١٠٠٦٧١٤٧٦٨/٠١٠٠٥٠١٣١٥١

دار الفتح الإسلامي
الإسكندرية - مصطفى كامل
بجوار مسجد الفتح الإسلامي
٠١٠٠٥٠١٣١٥١/٠١٠٠٧٣٨٢٧٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٠-٧١] .

أما بعد : فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار ، ثم أما بعد :

يقول الله ﷻ : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

إن أعظم نعمة أنعم الله ﷻ بها على عباده المؤمنين : نعمة إنزال الكتاب على الرسول الأمين ﷺ في هذا الشهر الكريم . وأعظم نعمة منَّ الله ﷻ بها على عباده المؤمنين أن هداهم بهذا الكتاب ،

وأخرجهم من الظلمات إلى النور ، وأحيا قلوبهم بعد موتها ، ونوّر بصائرهم بعد عماها ، وجمع بهذا الكتاب أمورهم بعد شتاتها ، وهو ﷻ يغني بهذا الكتاب وبما أنزل فيه من معاني الإيمان قلوبَ عباده المؤمنين عمن سواه ، ويتفضل الله ﷻ عليهم بالفضل العظيم بهداية هذا الكتاب العظيم الذي هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، قال تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء : ٨٢] .

فسبحان الله على تفاوت القلوب ! وتباين منازلها .

فالقلوب المؤمنة كالأرض الطيبة يأتي عليها هذا الكتاب فيحييها بعد موتها ، وتنبت أنواع الخيرات والبركات .

أما الأرض الخبيثة التي هي قلوب الكفرة

والمنافقين الذين لا ينتفعون بالقرآن ، ولا يتعظون بمواعظه ، ولا يأتمون به ، ولا يُحِلُّون حلاله ، ولا يُحَرِّمون حرامه ، فلا يزيدُهم القرآن إلا خسارًا ويزيد بعضهم طغيانًا وكفرًا .

قال ﷻ : ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ [المائدة : ٦٤] ، فهم يزدادون طغيانًا وكفرًا عندما يسمعون القرآن ، والمنافقون يزدادون رجسًا إلى رجسهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٤-١٢٥] .

وإذا أردت أن تعلم حقيقة الإنسان الذي تُعامله ، فانظر إلى حاله عند سماع القرآن ، وفي

مواسم القرآن كشهر رمضان .

فإذا وجدته قد ازداد إيمانًا وهدًى ، وتفريقًا بين الحق والباطل ، فيستبصر طريق الحق من طرق الضلالة ويستهدي بهدى القرآن ، فيرشده الله ﷻ إلى التي هي أقوم كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : ٩] ، فاعلم أن أرض قلبه هي الأرض الطيبة .

وأما من وجدته في مواسم القرآن ، ومواسم الطاعة ، وعند سماع كتاب الله ، وأهل الإيمان يتلون كتاب الله ويسمعونه ويقومون به ، إذا رأيته يزداد مرضًا إلى مرضه ، فيزداد تلبيسًا بين الحق والباطل ، ويزداد إغراقًا في ضلاله ، فاعلم أن أرض قلبه هي الأرض الخبيثة ، فمرض الشبهات مرض عضال في قلوب الكفرة والمنافقين ، يزيدهم القرآن التباسًا ؛ لأنهم لم يتلقوه بالقبول

والتسليم ، والتصديق والإذعان ، فإذا تُلِيَت عليهم آياتُ الله لم يزدادوا إلَّا رجسًا إلى رجسهم وضلالًا إلى ضلالهم ، حتى لربما وصل الحال ببعضهم إلى أن يسوِّي بين الكفر والإيمان ، بين عبادة الرحمن ، وعبادة الشيطان ، فيرى ذلك كله حقًا وإيمانًا وخيرًا وإحسانًا ، وهذا دليل على موت القلب بالقطع واليقين ، فإن القلب الذي ذاق طعم الإيمان لا يمكن بحال من الأحوال ولا بأي عذر من الأعذار أن يسوِّي بين عبادة الله ﷻ وبين عبادة العباد ، لا يمكن أن يستوي لديه تصديق الرسول الكريم ﷺ وسائر المرسلين ، وبين تكذيبهم والرد عليهم ، كيف يكون ذلك ؟!

ولا يشتبه هذا الأمر إلا على من ختم الله على قلبه وسمعه ، الذي يشك في الصراط المستقيم ولا يدري أهو دين الإسلام ؟ أم غيره من ملل الكفر :

من يهودية ونصرانية وعبادة أوثان أو نفاق أو غيرها ، لا يشك في هذا الصراط ولا يشك أن الحق هو دين الله إلَّا من طمس الله بصيرته ، وأعمى قلبه عن نور الوحي المبين ؛ لأنه لم يذق في حياته طعم الإيمان ، ولم يجد أثر علاج القرآن للشبهات التي في قلبه ، وذلك لخبث قلبه .

وإذا وجدت الإنسان كذلك يزداد مرض الشهوات عنده في مواطن الخير ، وعند سماع الكتاب وعند تلاوة آياته فوجدته إنسانًا غارقًا في النجاسات ، غارقًا في شهواته الدنيئة ، لا يعرف من الدنيا غير شهوة الطعام ، والشراب ، أو النساء أو المال أو الرياسة والملك ، لا حاجة له من الدنيا غير ذلك ، فهو مشغول ليل نهار بهذه الخبائث المنكرات ، فإن الخبيثات للخبيثين والخبيثين للخبيثات ، الخبيثات من الأقوال

والأعمال للخبيثين من الناس ، والخبيثون من الناس لهذه الخبيثات من الأقوال والأعمال .

وهذا عند أهل الإيمان من أوضح الدلائل على التوحيد وصحة الإيمان ؛ لأنهم عرفوا الحقيقة وأدركوا الفرق بين العمى والبصيرة ، كما قال ﷻ : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ۝ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : ١٩-٢٣] .

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ : وهو الكافر والمنافق الذي لا يرى من حقائق هذا الوجود ، إلا مظاهر الدنيا ، ولا يعلم حقيقة وجوده ، ولا يدري لماذا أوجده الله ، ولا يعنيه على أي حال تكون خاتمته ، لا يعرف من دنياه إلَّا تحصيل

شهواتها ، وكيف يمكر بأصحابها ، وكيف يكيد بمن يسير معه في طريقها ، وكيف يتنافس مع غيره من أهل الدنيا عليها ، على تلك الجيفة المنتنة ، أعمى لا يرى حقائق التوحيد وقدرة الله ﷻ وعظمته وملكه وسلطانه ، لا يدرك حقائق الإيمان باليوم الآخر ، غير متنبه لسرعة انقضاء الدنيا وقرب الموت ، ولا يعلم شيئًا عن عذاب القبر ونعيمه ، وما يكون فيه الإنسان بعد رحيله عن هذه الحياة ، ولا يبصر قرب القيامة والساعة التي أخبر الله ﷻ عن اقترابها فقال : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ [القمر : ١] ، وقال : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : ١] .

هذا الأعمى لا يرى ذلك ، لا يعرف إلَّا إدراك لذته وتحصيل شهوته .

وأما « البصير » فهو المؤمن الذي أبصر معاني أسماء الله ﷻ وصفاته ، فأحب الله ﷻ من كل قلبه ، وأبصر نعمه ﷻ عليه ، وأعظمها نعمة الإسلام والإيمان والإحسان والقرآن والرسول الكريم ﷺ ، فهذه نعم عظيمة ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران : ١٦٤] .

أعظم نعمة أنعم الله بها ﷻ على عبده هذه النعمة التي من أجلها وبسببها تتوقد منابع الحب لله ﷻ ، والرجاء في قلبه ، فإن الحب ينبت على حواف أنهار المنن التي يراها الإنسان فيستحضرها ، فيستقي قلبه منها فيزداد تعظيمًا وحبًا لله ﷻ ، ورجاءً للقائه ﷻ : ﴿ مَن كَانَ يَرْجُوا

لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [العنكبوت : ٥] ، فاليقين بلقاء الله هو الذي يرقى بالمؤمنين عن وزن الأمور بموازين أهل الدنيا ، حتى يروا هذه الدنيا صغيرة كما هي عند الله ، ويروا حقائق الإيمان والدين واضحة كالشمس لا يمكن أن يُختلف فيها .

وهكذا ينبت في قلوبهم أيضًا ـ بسبب رؤية نعمة الله ﷻ عليهم ، ورؤية غضبه على المغضوب عليهم والضالين ـ ينبت الخوف من الله ﷻ أن يضلهم كما أضل غيرهم من خلقه ، ولكنه سبحانه أنعم عليهم بالصلاة وبالقيام والصيام ومننه المتكاثرة ونعمه المتتابعة .

كم من ملايين البشر لا يعرفون شيئًا عن ذلك ، ويعيشون حياتهم لا يدرون شيئًا عن نفحات شهر رمضان ومواسم الخير ، عما يُنعم الله

على عباده المؤمنين ، ولا أقول ذلك في الكفرة فقط بل وفي كثير من المسلمين الذين انصرفوا عن دينهم وأعرضوا عن شرع ربهم ، وانشغلوا بوسائل الإفساد التي تصب عليهم أنواع الأمراض والنجاسات والخبائث ـ والعياذ بالله ـ ليل نهار ، وهم مشغولون بها يرون من هذه القذارات ويسمعون من هذه النجاسات ، التي لا يستحيي أصحابها من فعلها أمام أعين الملايين .

فإذا كان من عقوبة قوم لوط ما فعل الله ﷻ بهم من الخسف والتدمير ؛ لأنهم كانوا يأتون في ناديهم المنكر وكانوا يأتون الفاحشة وهم يبصرون ، فكيف بالناس اليوم وقد تفاحشوا علانية بأفحش القول والفعل أمام أجهزة الإفساد وأمام كاميرات تنقل صورهم المنكرة وأفعالهم الخبيثة أمام الخلق جميعًا وتلوث بها أرجاء الأرض

وأجواء السماء . أي فضيحة تلك التي فضحهم الله بها ؟ وأي مكر بهم يمكره ربهم وهم غافلون ؟ وأي خبث ذلك الذي نبع من قلوبهم الخبيثة ؟

انظر إلى نعم الله ﷻ عليك لتخشى الله سبحانه أن يضلك كما أضل هؤلاء ، وهو ﷻ مقلب القلوب ، وهو يثبت قلوب عباده المؤمنين بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، فأنت تحتاج إلى التثبيت الآن ، كما تحتاجه في الآخرة ، وكما تحتاجه عندما تنزل إلى قبرك .

وإذا كان خير الخلق ﷺ محتاجًا إلى تثبيت الله ، كما قال الله ﷻ له : ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء : ٧٤-٧٥] ، فكيف بنا ونحن المتلطخون بالذنوب والآثام ليل نهار ؟

والذي يطّلع من القرآن على حال الأنبياء ، يدرك كيف تتفاوت المنازل عند الله ﷻ بأعمال القلوب وأحوالها ، ويدرك أنه في أسفل السلم إن كان قد وضع رجله عليه ، وكذلك يتعرف على أحوال الصالحين الذين قص الله ﷻ علينا قصصهم في القرآن وقص علينا الرسول ﷺ من أنبائهم ، وكانت سيرة صحابته الكرام تطبيقًا عمليًا لهذا الصلاح ، فإن الإنسان يدرك كيف هو صغير ، وكيف أنه لا يزال في أول الطريق .

انظر إلى ما عوتب عليه الأنبياء والصالحون في لحظات سهو مرت بقلوبهم فعوتبوا عليها ، قال تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود : ٨٠] ، وقع في قلبه أمر كان غيره أولى منه ، وهو أن يستحضر في قلبه أنه إنما يأوي إلى الله ﷻ ، فإن عز

ركنه الشديد يأبى عليه أن يغيب عنه لحظة ، وإنما عوتب على ذلك كما قال النبي ﷺ : « رحم الله أخي لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن شديد »[١] وهذا هو الركن الشديد الذي أوى إليه النبي ﷺ وهو في الغار حين قال له صاحبه الصديق ﷺ : لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لرآنا ، فقال : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ، لا تحزن إن الله معنا .

فسبحان الله ! قد يخطر بقلبك أنت من أضعاف هذا الجنس ربما عشرات المرات وأنت لا تشعر ، وتأمل قول الله تعالى عن المؤمنين يوم بدر : ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ [الأنفال : ٧] ، فهذا أمر وقع خاطرًا في

(١) حسن : حسنه الألباني في « صحيح الجامع » (٣٤٩٩) عن أبي هريرة .

القلوب ، ودّوا أن تكون القافلة التجارية هي التي للمسلمين غنيمة بدلًا من الحرب والقتال ، فعوتبوا على ذلك .

كم يقع في القلوب بالليل والنهار من إرادات غيرها أولى منها ، ومن إرادات فاسدة ، إرادات تصل إلى حد التحريم : من الحقد ، والحسد ، والتباغض وسوء الظن بالمسلمين ، وتزكية النفس بما ليس فيها ، ومدحها بما ليست أهلًا له ، خواطر وإرادات ربما على المنكر والمعاصي والعياذ بالله .

وإذا تأملت هداية القرآن ، وشفاءه لما في الصدور ، تبين لك أنك تحتاج إلى علاج طويل ، كلنا يحتاج إليه . فربما أكثرنا أو كلنا لم يضع قدمه على أسفل السلم الذي درجته عند الله ﷻ عالية لا يعلم قدرها إلَّا هو ﷻ ، فالدرجات عند الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض ، فأين نحن من

علاج أمراض قلوبنا من الشبهات والشهوات ؟ فرب شهوة محرمة تقع ذنبًا يلام عليه الإنسان ، فكيف إذا كانت عزيمة وإرادة يستحضرها ويمرّها على قلبه ؟ فأقل شيء يُحَرِّمُه ذلك الذي يأتي بالخواطر الرديئة فيضعها في قلبه ، أن يُحرم خواطر الإيمان ، وأن يحرم ما يُفيض الله ﷻ على قلبه عند سماع القرآن ، كم من آية تمر عليك وأنت لم تتعظ بمواعظها ؟ كم من آية مررت عليها وأنت تقول متى تنتهي السورة ليركع الإمام لتنتهي الصلاة ؟

والله هذه خواطر ربما تقع في قلب كل واحد منا ، وهي تدل على النقص لا شك ، وأن القلب يحتاج إلى علاج ؛ لأنه إذا تدبر القرآن فسوف ينسى هذه الخواطر ، وكثيرًا ما يحرم العبد لذة مناجاة الله ﷻ في دعائه ، ويحرم لذة معاني الخير في

قلبه عند تلاوة كتابه ﷻ بسبب ما يقع في قلبه من موازنات فاسدة ، من تقديم أمور كان ينبغي أن تؤخر ، ومن تأخير أمور كان ينبغي أن تقدم ، ولذلك تكثر المشاكل في حياتنا ويعضل الداء لأننا لم نحسن التداوي بالقرآن الذي أنزله الله هدًى ونورًا وشفاءً ورحمة ، قال تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء : ٨٢] .

ولا شك أن طبيعة الحياة التي نحياها ، والتي هي مليئة بأنواع الصراعات على الدنيا والتنافس عليها تؤثر علينا ، ولكن لا بد لنا أن نتوقف لحظات لنعالج أمراض قلوبنا ، ولتحيا هذه القلوب ، ولنحصل على البصيرة التي لا يستوي من فقدها ومن حصل عليها : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾ ،

فالظلمات ظلمات الكفر ، والجهل ، والضلال ، وغضب الله ﷻ ، الذي يحل على من هوى فتحل في قلبه الظلمات فلا يرى الإنسان فيها شيئًا ، كما وصف الله ﷻ حال ذلك الكافر الجاهل الضال :

﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : ٤٠] .

اللهم اجعل لنا نورًا .

والنور نور الإيمان الذي أنزله الله ﷻ وأودعه قلوب المتقين ، وهذا يكون في القلب كمصباح متقد من زيت شجرة مباركة ، فهو نور الإيمان على نور الفطرة : ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور : ٣٥] .

وأما الظل والحرور فالظل حال أهل الإيمان هم في ظل وراحة وسكون ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨] .

فهم في ظل في قبورهم ، وهم في آخرتهم في ظل عرش الله ﷻ ، وفي الجنة في : ﴿ ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ﴾ [المرسلات : ٤١] ، في سكون دائم في راحة وسعادة ، لا تدانيها سعادات الدنيا كلها ، وينعم العبد بهذا النعيم الصافي بحسب ما ينهل من طاعة الله ﷻ والعمل في مرضاته والتعرض لفضله وجوده بالتمسك بكتابه الذي به حياة القلوب واطمئنانها وسعادتها وبه تذوق طعم الإيمان ، قال النبي ﷺ : « ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا ، وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ

نبيًا »[١] .

وأما (الحرور) : فهو حال أهل الكفر - والعياذ بالله - فالكفار في دنياهم في ضنك وشقاء ، وفي قبورهم في عذاب وبلاء ، وفي الآخرة في حر شمس دانية من الرؤوس قدر ميل ، يعرق أحدهم حتى يبلغ عرقه أنصاف أذنيه ، ويغرق في رشحه ، ويضرب عرقه في الأرض سبعين ذراعًا ثم يؤمر به إلى النار : ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [فصلت : ٤٠] ، ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ

---

(١) صحيح : رواه مسلم (٢/٢) باب الإيمان ، والترمذي وأحمد في « المسند » ، وانظر : « صحيح الجامع » (٣٤٢٥) ، قال القاضي عياض : معنى الحديث : صح إيمانه واطمأنت به نفسه وخامر باطنه ؛ لأن رضاه بالمذكورات دليل لثبوت معرفته ونقاء بصيرته ومخالطة بشاشته قلبه .

حَرًّاۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة : ٨١] .

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ مجتمع المؤمنين مجتمع الأحياء ، يزن بميزان الشرع ، يقدم ما قدمه الشرع ويعظم ما عظمه ، مجتمع يعيش لتحقيق العبودية لله ﷻ ، مجتمع زكي طاهر نقي ، إرادات أهله في مرضات الله ، بعيدة عن مساخطه وما يغضبه .

وأما مجتمع الكفرة فمجتمع أموات ونتنى ، وبين الموت والحياة أصحاب الأمراض والأوجاع والأسقام المختلفة ، ومن هو في غيبوبة ، ومن أوشك على الموت ، وتؤثر هذه المجتمعات الوبيئة فيمن يقربها وتؤثر في قلبه رؤية وجوه أصحابها ، وإذا كانت رؤية وجوه المومسات عقوبة دعت بها أم جُريج عليه لما لم يجبها فكيف برؤية وجوه الكفرة والمنافقين على سبيل الاحترام والتعظيم ؟

نسأل الله المعافاة واليقين .

فانظر كيف تقضي وقتك ، ومع من تقضي وقتك ، فنحن نحتاج إلى تعمير قلوبنا ، وأعظم تعمير للقلوب بإحيائها بكتاب الله ؟ « كان رسول الله ﷺ أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يأتيه جبريل فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة »[1] .

فصل

« كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان أحيا ليله وأيقظ أهله وشد المئزر »[2] .

وكان النبي ﷺ يعتكف في العشر الأواخر من

---

(١) صحيح : رواه البخاري (٤/ ١٩٠٩) ، ومسلم (١٠٨١) .

(٢) صحيح : رواه البخاري (٤/ ٢٠٢٤) ، ومسلم (١١٧٤) .

رمضان (١) طلبًا والتماسًا لليلة القدر ، وطلبًا لفضل الله ﷻ في هذه الليالي كلها ، فهذه خير ليالي السنة ليالي العشر الأواخر من رمضان ، وكما قال النبي ﷺ : « **من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه** » (٢) ، والنبي ﷺ رغب في السبع البواقي أكثر ، فقال : « **التمسوها في العَشر الأواخر ـ يعني ليلة القدر ـ فإن ضعف أحدُكم أو عجز فلا يغلبنّ على السبع البواقي** » (٣) ، وذلك أن آخر العمل يكون الإنسان قد هيئ فيه تهيئة للمنازل العالية ، فإذا أفاض الله ﷻ عليه نعمته في آخر هذا الشهر الكريم كان أهلًا لقبول هذه النعمة ، وأهلًا لاستثمار هذا الخير ونموه في قلبه .

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ٥٠٢٥) ، ومسلم (١١٧١) .
(٢) صحيح : رواه البخاري (٤/ ٢٠١٤) ، ومسلم (٧٦٠) .
(٣) مسلم (١١٦٥) .

ولذا كان التمهيد للأمور العظيمة بكثرة العبادة وكثرة الذكر ، وكثرة التلاوة ، وكثرة الصلاة وكثرة القيام والركوع والسجود ، كما قال الله ﷻ : ﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [الأعراف : ١٤٢] .

فهذه الأربعون كان موسى عليه السلام يصوم نهارها ، ويقوم ليلها تهيئة لسماع كلام الله ﷻ ولتقريبه نجيًا ، وهو في هذه المرة يقدم مشتاقًا محبًا بعد أن ذاق تلك الحلاوة في المرة الأولى مع أنه كان يطلب نارًا وهدًى ، كان يريد نارًا فرأى نورًا أعظم من الذي يطلب ، وكان يريد هدًى على الطريق الذي يسلكه الناس فأنعم الله عليه بهداية الصراط الذي يسلكه النبيون ، أما المرة الثانية فقد جاء وهو مستعد يطلب خيرًا مما فاز به ، فكانت

المرة الثانية أكمل من الأولى فتعجل إلى ربه راغبًا في رضاه قد هيئ بهذه العبادة أربعين يومًا يصوم نهارها ويقوم ليلها .

وهكذا أيضًا عندما هيئت مريم عليها السلام لتحمل الأمر العظيم ـ أمر ولادة المسيح ـ قال تعالى عنها : ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٣] .

فالأمور العظيمة إنما تحتاج إلى تهيئة ، يقدرها الله عز وجل لعباده المؤمنين ، وهو يعطيهم إياها وهم يسألون ربهم عز وجل في صلاتهم ، ألم تسمع قول الله عز وجل : ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ ﴾ [آل عمران : ٣٩] ، وقال موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس : ٨٩] .

وإن الله ليغير وجه الأرض ومن عليها بدعوة صادق مخلص قانت خاشع لله ﷻ.

انظر إلى مكة المكرمة ، كيف كانت أرضًا قفرًا في جبال ، لا نبت فيها ولا ماء وبدعوة قانت خاشع لله ﷻ تقطع الملايين سبل الأرض إليها بقلوب والهة وألسن ملبية وأنفس ضارعة : ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] .

دعوة إبراهيم عليه السلام تغير بها وجه الأرض . نعم والله ، كما تغير وجه مصر بهلاك فرعون وجنده بدعوة من موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس : ٨٩] .

دعوة من النبي ﷺ حين قام طويلًا في ليلة بدر تغير بها وجه الأرض ، فلولا نصر الله للمسلمين

يوم بدر لما عُبِدَ الله في الأرض بعد ذلك ، قام النبي ﷺ يصلي وهو يستغيث ربه : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ [الأنفال : ٩] ، استجاب له وهو يصلي طوال الليل ، واستجاب له ليلة الأحزاب حين تعاقد عشرة آلاف من المشركين على الكفر ، فأرسل الله عليهم ريحًا وجنودًا لم يروها ونصر جنده الغالبين بعد أن أوشك الأحزاب أن يصلوا إلى غايتهم من اقتحام المدينة واستئصال الإسلام ، فانصرف عشرة آلاف من الأحزاب ، فانقلب الأمر في لحظة بدعوة صادقة ، وانتقل الكفر إلى الدفاع بعد أن كان مهاجمًا .

انقلب الأمر أيضًا على يهود بني قريظة في تلك الليلة بدعوة النبي ﷺ وأصحابه ، فهؤلاء قلوبهم متعلقة بالله راجية لفضله .

فوجه التاريخ يتغير بدعوة صادقة ، فاجتهدوا عباد الله في الدعاء وخاصة في الأيام المباركات والليالي الفاضلات كي يتغير حالنا إلى ما يُحِبُّ الله ﷻ ويرضى ، وذلك بكثرة الاجتهاد في الدعاء وكثرة التضرع ، ولا بد أن تحيا القلوب ، فإن الله لا يقبل الدعاء من قلب غافل .

وقد تنقلب الأمور بعد أن تصل إلى نهايتها من حيث لا يشعر الناس ، ويأتي الكفرةَ من أمر الله ما لم يكونوا يحتسبون ويأتي أعداءَ الإسلام من المنافقين من الله ما لا يعلمون ، وهو ﷻ يملي لهم حتى إذا أخذهم أخذهم أخذ القرى وهي ظالمة ، إن أخذه أليم شديد ، فما أعظم شأن دعاء المؤمنين المخلصين ، فإنه بحق لسلاح المؤمن وملجؤه في الشدائد .

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ

دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

وليكن الاعتكاف عكوفًا بالقلب على الله وإخلاصًا لوجهه سبحانه ، قبل أن يكون ملاءة تفردها في المسجد أو خباء تصنعه لكي يخلو بك من يريد مسامرتك ، ومن تريد محادثته ، والفرح بالكلام معه ، وأنت في غفلة عن حقيقة الاعتكاف .

الاعتكاف أصلًا ، عكوف القلب ، والهمة قبل أن يكون عكوف البدن .

نسأل الله أن يوفقنا وإياكم لما يحب ويرضى وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

